ترجمات

25 ديسمبر 2015

الكلام والفلاسفة

جورج غيسدورف

ترجمة: فوزية ضيف اللّه

مؤمنون بلا حدود

Mominoun Without Borders

مؤسسة دراسات وأبحاث www.mominoun.com

جميع الحقوق محفوظة © 2015

All rights reserved © 2015

الكلام والفلاسفة(*)

يكمن خطّ الفصل الرّمزي في الوعي بأنّ اللفظ لا يتحدّد من تلقاء نفسه بل من خلالنا نحن. فالهيمنة الإنسانية تُفتكّ من الأنطولوجيا ومن لحظة اندهاش ومن خيبة أمل ومن قلق: إنها ساعة الفلسفة. إذ لا يِدرك الإنسان إلا بغضّ النظر عن كلّ الموانع الأسطورية، فيستطيع أن يُمسك بالألفاظ التي تُخضِعه إلى قانونها. فالألفاظ تنتظر منه أن يُحلّلها. لذلك فَتحوُّل القدرة (لديه) مُتعلق بهذا الاكتشاف. لقد كان العالم الأسطوري عالم تسميات، فلكلّ شيء اسم، ويكون كلّ شيء حسب اسمه، وعلى عكس ذلك فإنّ عالم التفكّر هو عالم المعنى: فالتسميات لا قيمة لها بدون المقاصد.

إنّ مغامرة الفكر الغربي تبدأ عندما يُوضّح الفكر الإغريقي استقلالية الكلام الإنساني. إنّ خلق وقائع الطبيعة أو على الأقل خلق معناها يُعَدُّ من مشمولات الإنسان. ومن هنا فالإنسان مقياس لكلّ الأشياء وإله في كونه، إله يدخل في عداد الآلهة، ويدّعي مجادلتها في امتلاك العالم.

تُثبت البلاغة والسفسطة اليونانية أنّ العالم الذي نعيش فيه هو عالم الكلام، وأنّ الإنسان فطِنٌ يستطيع أن يُكوّن الكلام على ذوقه ليخدع به غيره، فالحيلة إذن تُقارب أن تكون زندقة، بما أنّه يمنع على الحقيقة كلّ قيمة ترسندنتالية. ولا يقبل استبدالها أبداً إلا بتقنية جدّ إنسانية، فيتأسس ضدّ هذه الفوضى المهدّدة مطلب سقراط الذي يريد أن يُنقذ وحدة الإنسانية انطلاقاً من التفسير الجذري للكلام. إذ يعترض عن كون الألفاظ تابعة لنا كغنيمة

---

* ترجمة الفصلين الثالث والرابع من كتاب الكلام لجورج غيسدورف

George Gusdorf, La parole, Paris, P.U.F, 1952.

العنوان الأصلي للكتاب في لغته الفرنسيّة هو (La Parole) للفيلسوف جورج غيسدورف (George Gusdorf)، وقد صدرت الطبعة الأولى لهذا الكتاب سنة 1952 لدى النشرة الفرنسية (P.U.F)، ويعتبر هذا الكتاب دراسة حول التواصل الإنساني واللغة. يوضّح غيسدورف مختلف معاني الكلام بدءاً بالأسس الثيولوجية (الفصل الأول، الكلام والآلهة)، مروراً بالكلام كواقعة إنسانية دالّة على التواصل (الفصل الرابع)، وصولاً إلى دراسة بنياته اللغوية. كان جورج غيسدورف (1912-2000) تلميذاً لغاستون بشلار بدار المعلمين العليا بباريس، وينتمي إلى جيل جون بياجي ويونكليفيتش، وقد كان متأثراً بالمدرسة النقدية لويلهام ديلتاي. كتب كثيراً في السيرة الذاتية (l'autobiographie)، اهتمّ بمواضيع ميتافيزيقية فكتب **الأسطورة والميتافيزيقا** (1953)، **رسالة في الميتافيزيقا** (1953)، وكتب أيضاً **المعنى الإنساني للحريّة** (1962)، **أفول الأوهام، ذاكرات على غير أوانها** (2002)، إلى جانب محاولات أخرى تعود إلى مرحلة بداياته مثل نصّ **اكتشاف الذات** (1948)، التجربة الإنسانية للتضحية (1948)، الذاكرة والشخص (1951). كما كتب كذلك سلسلة (collection) العلوم الإنسانية والفكر الغربي في ثلاثة عشر مجلّداً (1966-1988). لكنّ جورج غيسدورف لم يلق الاهتمام اللازم، رغم عمق أفكاره وتفرّد لغته وتميز أسلوبه، فقد أغفله تاريخ الفلسفة الغربي، وظلّت كتاباته في ظلمة حالكة.

ننفرد بها. ويفرض توضيح الألفاظ كاختبار للوعي. فالأمر القطعي لامتلاك المفردات يتوافق مع واجب الوفاء لأنفسنا والخضوع للآلهة.

سيُواصل أفلاطون وأرسطو الجهد السقراطي نحو الوحدة التي يعثر عليها انطلاقاً من التقاء المعاني الإنسانية. فالتجربة المباشرة هي تجربة اللانظام، غير أنّ تدخّل الفكر يُعيد الانسجام الذي هو إعادة اكتشاف لما هو إلهي. تلك هي إذن نقطة بدء التفكّر الأفلاطوني: فالكراتيل (le cratyle) واحدة من بين المحاورات الأولى الأكثر أهمية، وموضوعها كما يشير إلى ذلك العنوان الفرعي (le sous-titre) "في استقامة الكلمات" (la rectitude des mots)، إنّ فقه اللّغة هو انطلاقة للفلسفة بحق. لذلك سيطرد من معبد الحكمة كلّ المخادعين وصانعي المعجزات (les thaumaturgies) الذين يخلطون الحق بالباطل برغبة منهم، ويُقوّضون كلّ حكمة وكلّ تقوى. يتجلى المنهج السقراطي كمبحث في المفردات: ما الشجاعة؟ ما العدل؟ ما التقوى؟ إنّ المستَجوب يُجيب في البدء بكلّ ثقة فيقترح صيغة ما على غاية من التفاهة، بحيث يُبيّن له سقراط بدون عناء أنها متناقضة ولا تعني شيئاً.

إنّ الحسّ المشترك هو سيّد سيّء، لذلك يجب تركه للوصول إلى الحسّ السليم. فالتفكرّ بتحريض من السخرية السقراطية يضع الموازنة موضع شغل عند كلّ شخص بواسطة الحكم الأكثر تعميقاً [وهو الحكم] الذي يكون سيّداً للحقيقة بعيداً عن المظاهر. يتجلّى إذن أنّ الألفاظ، وإن كانت غاية في البساطة وكثيرة الاستعمال، فهي دلائل على الوجود وإيحاءات على فكر كبير يُوجد فينا، يتجاوز فكرنا ويُؤهّله.

لقد كان الأثر الضّخم للفلسفة اليونانية يطمح إلى إعطاء الحقيقة للغة ما. فالمذهب الأفلاطوني للأفكار يَصِل عالم الألفاظ وعالم المظاهر بعالم الصّور المفارقة. لذلك فإنّ الفكر الإنساني أُنقذ بما أنّ الدّياليكتيكا استبدلت أفكار أفلاطون بماهيات مفهوميّة يستطيع الإنسان أن يتعلّق بها مباشرة عن طريق حدسه الخاصّ. فيُصبح الكلام مُعَدَّلاً بواسطة نشأة الميتافيزيقا. هذه إذن إجابة تنتصر على النقد السفسطائي. لكنّ فقَد هذا الكلام الميتافيزيقي البراءة الممتلئة التي للكلام الأسطوري المتقدّم على الفكر مطلقاً. لقد كان هذا الكلام الأسطوري يتجلى كحوار باطني إلهي، فتعلّم اللّغة كان يتمثل بالنسبة إلى الإنسان في احترام النظام المفارق. أمّا الأنطولوجيا الجديدة فتظهر كمحاورة (Dialogue)، أي كأثر مشترك وكمعارضة / محاورة يكون فيها سقراط المنبّه الذي يأخذ قسماً من الأقسام حتى يجتنب على نحو مبكرّ حوار النفس مع نفسها وحوار العقل مع الآلهة. ذلك هو معنى الدّياليكتيكا، حيث تتأكد المشاركة المتصاعدة للفكر الإنساني أثناء اشتغال الكلام. لقد نتج عن

إنسانوية السفسطائيين الجذريّة - الذين يعلنون التحرّر من كلّ معيار مفارق ويقرّون في مقابل النسبيين بأولوية حقيقة ما- أن تحرّكت الأنطولوجيا التي تفرّعت إلى مفاهيم وأفكار وانتظم بينها الوجود الأصلي المتراصّ.

ومن الناحية نفسها يتأكّد الوعي بنشاط الحكم الإنساني الذي ينادي بإثبات مشاركة اللّغة في الوجود. إنّ الحقيقة يجب أن تكون في مستوى الكلام وأن تُنْتَقَد بدون توقّف. فللإنسان قدرة للحكم على الكلمات، فهو الذي يتكفّل بتصفيفها في الوجود. يربط الفكر القديم بذاته بين الواقعية الأنطولوجيّة التي للمفهوم والمثالية العقلانية التي للحكم، بحيث تستدعى هذه الوحدة إلى التفكّك في مستوى آخر. لقد أصبح مشكل اللّغة المشكل المتميّز لدى الميتافيزيقا. ويتجلى هذا الانشغال داخل الفكر الوسيط نفسه الذي يمكن أن يُفهم كنقاش مُهّم حول مبحث الصلاحية الأنطولوجيّة للكلام الإنساني. فتجتهد مختلف المدارس لحلّ مشكل الكليّات (les universeaux): ما هي طبيعة الأفكار العامة التي ترجع إليها الكلمات المستعملة؟ هل توجد وقائع روحية مفارقة، أفكار أفلاطون، أو ماهيات تُعطي تناغماً لكلامنا؟ أم أنّ المفاهيم ليست شيئاً آخر غير الكلمات التي نشير إليها؟ هل توجد إنسانية مختلفة عن البشر الموجودين أم أنّ الإنسانية ليست إلا اسماً؟ توجد بين الأنطولوجيّة المفهومية والعدمية الاسميّة سلسلة من الوضعيات المختلفة جدّاً، وهي التي تُعرّف التوجّهات المتنوعة للفكر. تذهلنا اليوم هذه المعارضات اللامحددة بصبرها على النظر في مسألة يظهر أنها لفظية محضة. لكن إذا تعلق الأمر بمعنى الكلمات فإنّ أسس الميتافيزيقا والثيولوجيا تُوضع موضع تساؤل. فإذا كان الأفراد يوجَدون وحدهم، وإذا كانت الأجناس ليست إلا أسماء، فإنّ الشخصيات الثلاث للثالوث المقدّس لا تستطيع أن تتوافق مع بعضها بعضاً، ونكون نحن فريسة للشرْك. كذلك، لوكان خطأ آدم خطأ إنسان لا خطأ الإنسانية فإنّه لن ينتقل وتُصبح عقيدة (Dogme) الخطيئة الإنسانية متناقضة. ولكن على العكس من ذلك فإنّه إذا وُجد الجنس وحده فإنّ الفردانيات ستمّحي. إنّ الواقع الفردي لكلّ إنسان يتلاشى داخل الإنسانية ككلّ. وهي هرطقة (hérésie) حديثة تُهدّد الحُلوليّة (panthéisme). ينبغي أن يكون انتباه الدّكاترة دائم التيقّظ. فكلّ كلام يدلّ على عمل للإيمان إذ أنّ تهديد الحرم (excommumication) ثقيل على الذي يُريد أن يلعب بالكلمات خشية تحطيم المسيحيّة.

يجب أن تنتهي الألعاب البارعة للسكولاستيكية ضرورة إلى مُعالجة الرّيبة والعداوة لدى العقول النيّرة. إنّ التي تؤكد نفسها في مناقشات المدرسة العقيمة بدعوى تأويل كلام الله هي سفسطة مستحدثة في الحقيقة، حيث تكوّن حسب الطّقوس المدقّقة للنقاش قصوراً من الأوراق العقلية. وما قام به الدكاترة بقوّة الصيغ والبراهين هو أنّهم عقّدوا كلّ شيء. لقد فَقدوا علاقتهم بإله الإنجيل وبعالم التجربة. فإذا أردنا أن نصل إلى طريق التقوى والحكمة والحقيقة، فإنّه ينبغي أن نعود إلى الصفر، أي أن نخلق لغة جديدة. إنّ كلّ ثورة روحية كانت أو عقلية تتطلب تحويلاً أوليّاً للغة الحالية. والمثال الحاسم على ذلك هو النهضة والإصلاح خُصوصاً.

لعلّ انقلاب النهضة العظيم يجد في ولادة الفيلولوجيا الحديثة ليس رمزه فقط، بل نواته أيضاً. ومن هنا فصاعداً، فإنّ العلاّمة لن يكونوا علماء لاهوت أو مجادلين البتّة بل أدباء وبحّاثة يأخذون على عاتقهم واجب إحياء اللغات الحيّة. وتكون اللاتينية في البدء، والحال أنّه ثمّة لاتينية حيّة ولاتينية الكنيسة. وكذلك اللّغة الأمّ للطقوس والسكولاستيكية، وإن كان الإنسانيون يؤكدون أنّ هذا الاصطلاح التعبيري (idiome) هو ثمرة الانحطاط، ثم بعد ذلك دراسة اللاتينية الوسيطة الدنيا، وهؤلاء هم الذين يمتدحون العودة إلى الأصل الشيشروني. إنّ دراسة اللاتينية تكتمل من هنا فصاعداً بدراسة اليونانية المهمّشة من قبل الكنيسة الغربيّة. وأصبحت الفيلولوجيا الكلاسيكية مادة تعلّمية دقيقة تربط ما بعد الكلمات بالبشر وبالحضارات، بما في ذلك أنها تُقيم مقاماً للدّراسات السيميائية في "كولاج" فرنسا الجديد، وهي مؤسسة لائكية تأسّست إلى جانب مدارس تقليدية وكلّيات وسيطة.

يتطلب الأمر هنا الاستمرارية، لا مجرّد إعادة تناول لتخطيط دراسات التعليم العالي. فالفهم الجديد للغات القديمة يفتح أمام الفكر آفاقاً موسّعة: فخلق الفلسفة هنا، هو نمط مكافئ للاكتشافات الكبرى التي غيّرت بنية العالم في الحقبة نفسها، وهي تُعِدُّ هذا الوعي الجديد بالذات حتى يكون ميزة للإنسان الحديث. لقد انفتحت العديد من القارّات المجهولة للبحّاثة لأنها كانت منسيّة: ينبثق العهد العبري القديم والعهد اليوناني الجديد في نضارتهما من الشائبة التي لحقتهما من ترسّبات لاتينية الكنيسة. إنّ الاطّلاع المباشر على النصوص المقدّسة في معدنها الأصلي يفتح المسالك لفهم جديد للوعي المسيحي. غير أنّ معاودة الاكتشاف هذه يصطحبها أثر الصدمة المدعوّة إلى التعلّم طويلاً عبر أشكال الوعي. ولكنّ هذه الثورة التي تجد في الكتاب المقدّس كلام الله الحيّ، تتجلّى كثورة عن طريق انقلاب غير متوقّع ويكون لها أثر مضاعف في مستوى اللّغة. فاللاتينية تفتقد تميز اللّغة-الأم الذي للنصوص المقدسة، كما لو تُعَدُّ لغة تواصلهم وتعلّمهم أيضاً. لذلك فعلى البحّاثة أن يُضاعفوا التوضيح بالعودة إلى الأصول.

أمّا بالنسبة إلى البُسطاء فهم الأوفياء لهذا التوضيح الآخر الذي يتمثّل في الاطّلاع المباشر على الكتب المترجمة إلى اللّغة العامية (vulgeure). ينجرّ عن الإصلاح (تلبية) للحاجات الرّوحية وولادة الألمانية والإنجليزيات الحديثة التي يكون إنجيل لوثر (Luther) والإنجيل الانجليزي (Bible anglicane) من معالمها الأولى. فالأوفياء سيستطيعون أن يصلّوا لله، وأن يقرؤوا كلامه، كلٌّ بلغته.

ومن هنا، فإنّ انحطاط اللاتينية يرمز بالنسبة إلى الغرب إلى انقطاع المسيحيّة الوسيطة أمام تدفّق الجنسيات الحديثة. فالانقسام الرّوحي يؤكد الانشقاق السياسي. كما يصل حلم رومانيا بتوحيد الكنائس الكاثوليكية

إلى معاودة نكبة بابل. إنّ البشر يتفاهمون فيما بينهم شيئاً فشيئاً، فالثيولوجيا لا تتكلم لغة عالم موحّد أبداً. ولكن لحظة هذا الإفلاس تتوافق، عبر لقاء خارق للعادة، مع انبثاق أمل جديد. ثمّة لغة تأخذ في الظهور، وتؤكد أنها قادرة على التوفيق بين العقول داخل جامعة توحيد الكنائس الأصلية. فغاليلاي نبي ونابغة عصر يَنفتح ويُعلن: "إنّ الرياضيات هي اللّغة التي كُتب بها الكون"، فالرياضيات تتعالى عن تداخل اللغات والجنسيات. لقد استبدلت الدقة المريبة لرطانة المدرسة الثيولوجية بصرامة مكتملة وتسلسل نموذجي للصيغ والأفكار.

إنّ الذي يُعلن نفسه في مقدم فيلولوجيا الطبيعة هذه هو تحويل للمعرفة بحق، وأصبح ذلك ممكناً بالرجوع إلى الرياضيات. تتكلّم الطبيعة لغة مشفّرة، فقد قال أفلاطون من قبل إنّ الله هو مهندس الأبد، وإنّ الطريق الموصلة إليه والأكثر أماناً تكون بفكّ شفرات النظام الذي وضعه في الخلق. إنّ الفيلسوف الحديث هو هندسي وتقني، وكذلك كان كبلر وديكارت ونيوتن يكشفون عن القوانين الدقيقة التي تُبيّن التخطيط الإلهي للكون. ستصبح اللّغة لغة الاستدلال الرياضي بدون منازع. فذلك هو نموذج كلّ فكر فلسفي من هنا فصاعداً: فسبينوزا كتب **رسالة في الميتافيزيقا** وقدّمها وفق النظام الهندسي كتسلسل للقواعد التي تُستنتج من بعضها بعضاً.

ثمّة إذن لغة للعقل. لقد استبدلت سيادة الكنيسة المخلوعة وسيادة السلف بسيادة جديدة للوعي النقدي، وما يُوضّحه كلّ واحد منا يكون بكلماته حتى يتقدم خطوة؛ خطوة نحو النور الساطع. إنّ كلّ مهمّة للفلسفة تكمن في الإعداد لهذه اللّغة المكتملة، بحيث يصبح كلّ لفظ واضحاً ومتميزاً، وتُخضع الحركة نفسها للمبادئ العقلية. إذ يتمثل معنى الإصلاح الديكارتي في أن يضع هذه اللّغة الصارمة في إطارها، وسيُجهّز هذا الإصلاح الفلسفة والرياضيات الحديثة بإدارة موثوق فيها يخصّ نظام الأفكار أو نظام الأشكال والأعداد. ولديكارت رسالة طريفة في شبابه تصلح أن تكون دليلاً على ذلك. ففي 20 نوفمبر 1629 ردّ على مراسله مارسان (Mersenne) الذي مدّه بمشروع لغة كونية، أي نمط من الإسبرانتو (espéranto) اقترحه عليه أديب من أدباء عصره، لكن لم يبدُ له أنّ المشروع ذا أهمية بالغة، فهو أثر لأحد الفيلولوجيين، وقد رضي باختراع وتركيب الكلمات. فعلى العكس، ينبغي أن تكون اللّغة الكونية لغة العقل نفسه، فلا تعبّر بواسطة الأشياء بل بواسطة الأفكار الصادقة.

ويُواصل ديكارت: "إنّ اختراع هذه اللّغة مُتعلّق بالفلسفة الحقيقية، لأنّه من المستحيل بعبارة أخرى أن نعدّد كلّ أفكار البشر، وأن نضعها في نظام، وأن نُميّزها بحيث تكون واضحة وبسيطة. وذلك يُعَدُّ في نظري السرّ الأكبر الذي ينبغي أن نمتلكه حتى نكتسب العلم الجيد".

إنّ كامل مشروع **حديث الطريقة** منغرس هنا كنبتة، لكننا لا نُدرك بوضوح أنّه لا يطمح إلا إلى إعطاء العقل الإنساني اللّغة المشفّرة التي للعلم. ويواصل ديكارت قوله إنّ تعلّم اللسان الكوني سيُصبح أمراً يسيراً، وسيُساعدنا على الحكم (le jugement): "إنّ الكلمات التي لدينا ـ عوض أن تكون معانيها واضحة ـ ليس لها إلا معانٍ غامضة تقريباً اعتاد عليها فِكر البشر طويلاً، وذلك راجع إلى أنّه لا يُصغي إلى أيّ شيء على نحو مكتمل. والحال أنّني مُقتنع بأنّ هذه اللّغة ممكنة، وأننا نستطيع أن نجد العلم الذي يخصّها، والذي يستطيع المزارعون بواسطته أن يحكموا على حقيقة الأشياء أحسن ممّا لم يقم به الآن حتى الفلاسفة".

ينبغي إذن استبدال اللّغة الغامضة والخيالية التي للحسّ المشترك باللغة الدقيقة التي للحسّ السليم، التي تتّضح عبر البداهة الحدسية التي تنشأ عن الخضوع للعقل. ونستطيع أن نقول إنّ الأثر الديكارتي بأكمله سيُصبح مباشرة للاشتغال على برنامج شبابه هذا. وهو جهد عظيم لإخضاع العالم والله والميتافيزيقا والعلم والتقنية إلى وحدة ولغة واحدة كونية للإنسان. إنّ المشروع لا ينبغي أن يتحقّق على الوجه الأكمل دون شك، لأنّ اكتمال نجاحه سيدلّ على تجاوز للظرفية الإنسانية، أي يدلّ على نمط من نهاية التاريخ. إنّ الإنسان سيحتّل مكانة الله من جهة كونه مالكاً لأرباب الكلمات في الكون. ويبدو أنّ ديكارت كان على وعي بهذه الاستحالة منذ رسالته إلى الأب مارسان. إذ يُصرّح بأنّ اللسان الكوني يمكن تحقيقه "لكن لا تأملوا أن تروها في الاستعمال، لأنّ ذلك يفترض تغييرات كبيرة في نظام الأشياء، وينبغي أن يكون كلّ العالم جنّة على الأرض، والحال أنّ ذلك لا يمكن اقتراحه إلا في بلدان الروايات". فالنجاح الباهر للعقل يظلّ إذن حلماً. إنّ الإنسانية توجد تحت رمز بابل، وديكارت نفسه هو واحد من بين أكثر مؤيّدي العقل جرأة، ومع ذلك لا يعتقد في النجاح النهائي لهذا اللّسان، وإن كان قد سخّر له حياته من أجل تشييده. تصبح اللّغة الكونية إذن كمال المعرفة ومصالحة للإنسانية مع السّلم إلى الأبد.

إنّ رسالة ديكارت تظلّ على الأقل جهراً بعقيدة الفكر الحديث، فهي وثيقة على قدر من الأهميّة، ذلك أنّه كان على ليبنتس العبقري أن يحلم هو الآخر باللّسان الكوني فنسَخها بخطّ يده ليحتفظ بها بين أوراقه. لقد ظلّ خلفاء ديكارت أوفياء لبرنامج العقل المُتحّمس هذا، لكنّهم تحرّروا من المُفترضات الميتافيريقية التي ظلّ فكر المعلم وفيّاً لها. إنّ **قواعد لتوجيه الفكر وحديث الطريقة** يمنحان الكثير لجهد الإنسان في تكوينه للمعرفة. ولكنّ العناصر نفسها مأخوذة عن واقع ترسندنتالي. إنّ الطبائع البسيطة لديكارت والأفكار الواضحة والمتميّزة مثل الأفكار الأفلاطونية أو مفاهيم أرسطو تتوافق كلّها مع معطيات أنطولوجيّة. إنّ الهندسة الإنسانية هي إعادة لهندسة إلهية، فالإنسان يَحُلّ رموز التصميم الإلهي. ودون شك، فإنّ ديكارت لا يبدو أنّه يُحافظ مع إلهه على

علاقات جدّ حميميّة، دون أن يصطدم بجبهة إله الإنجيل، وإن كان إله الفلاسفة والعلماء مازال يظهر كحَكَمٍ على المحاولات الإنسانية التي يُسَطِّر على نحو مسبق حدودها.

إنّ خلفاء ديكارت يعتقون الكلام الإنساني شيئاً فشيئاً من كلّ وفاء إلى كلام الإله مهما كان هذا الكلام. فالرياضيات كما قال غاليلاي هي اللّغة التي كُتب بها الكون. ولكنّ هذه اللّغة وهذه الكتابة هي آثار للإنسان وثمرات غَزْو. فحكمة ديكارت الذي يريد أن يكون سيّداً ومالكاً للطبيعة هي من قبل حكمة عامل وتقني واع بحرية متصاعدة للفعل. لا يتعلّق الأمر بالتنبُّؤ بتصميم الإله أو بقراءته في الجزء الأعلى من كتفه، ولكن باتخّاذ مبادرة للإضافة إلى الطبيعة. فيصبح الإنسان خالقاً على صورة الإله، وإن اقتضى الأمر بدونه. إنّ هذه الإنسانوية (Humanism) تشهد على منفعة لنشاط الفكر تكبر شيئاً فشيئاً؛ فيستبدل العقل الأنطولوجي للفلسفة التقليدية بعقل تعقّلي. إنّ الحكم يسير فوق المفهوم وفوق الفكرة على طول الطريق التي تأخذنا من ديكارت إلى كانط مروراً بالقرن الثامن عشر.

إنّ مفكرّ القرن الثامن عشر المعاصر للثورة الصناعية والسابق للثورة السياسية لسنة 1789 يمنح النجاعة للإنسان شيئاً فشيئاً، فالعلم والتقنية ينزعان عن الإله أولويته في هذا العالم. فتقوم الموسوعة بخلق كون جديد وفق السلّم الإنساني. ويُعبّر تصوّر اللّغة أيضاً عن تعديل الفلسفة هذا. يُعطي قرن الأنساق للفكر القدرة على حمل الكون. ولكنّ الإصلاح ينبغي أن يكون جذريّاً. إذ يجب أن نضع لوحة بيضاء لكلّ الأفهام السيّئة المتجمّعة بواسطة العصور الفاقدة للنور، وذلك باستعادة مشروع ديكارت نفسه الذي عرضه في رسالته إلى مارسان. "إنّ الكلمات التي لدينا ليست لها إلا معانٍ غامضة تقريباً"، فكلّ الشرّ ينبع من هنا، سيُردّد ذلك بعد ديكارت كلّ من لوك وبركلي وكوندياك. وسيُوضّح كلّ واحد بطريقته أمراض اللّغة القائمة داخل مذاهب الميتافيزيقا التقليدية. غير أنّ ديكارت الشاب يعود على أعقابه أمام المشروع الذي بدا له حلماً. أمّا اللاحقون فسيكونون أكثر جرأة. فالقدرة التي ينسبها اللاهوتيون للإله في تسمية الواقع بخلقه هي من هنا فصاعداً من مشمولات الفيلسوف الذي يضع مستنبطاً دقيقاً للأفكار بدون أحكام مسبقة لاهوتية، فيصبح الخالق الحقيقي لعالم العقل. تبدأ الثورة في مستوى اللّغة في ليلة الرابع من أوت حيث تمّ تحطيم كلّ الامتيازات التقليدية وانتهت إلى دستور جديد يحفظ لدى هيمنة العقل الاسمي اللعب الحرّ بالكلّمات، مواطنو الكون الخطابي حيث تكون المعاني قد اختُبرت بعناية وعلى نحو مسبق. كذلك الأمر بالنسبة إلى ثوار سنة 1789 بحيث ينبغي أن تضمن البنية السياسية الجيّدة سعادة الإنسانية وكذلك الأمر بالنسبة إلى الإيديولوجيين، ثوار الفلسفة الذين يفكّرون مع كوندياك بأنّ "لغة جيّدة الوضع" ستحلّ كلّ المشاكل إلى الأبد.

لقد انتهت الثورة السياسية إلى نكبة، لقد أعلنت السّلم في العالم وأحلّت به الحرب، وصادقت على الاتفاق المدنيّ وانتهت إلى الرّعب. إنّ القرن التاسع عشر هو قرن ردّ الفعل بعد أن تلاطمت أمواج بحر نابليون، وهو قرن العودة إلى القيم التقليدية. فتعبّر الألسنيّة بطريقتها عن نكبة كلّ المتفائلين. لقد مات كوندياك دون أن يتمكّن من إعداد **لغة الحساب** هذه التي ينبغي أن تضع حدّاً للفلسفة بواسطة توضيح نسقي. إنّ علماً للغة يبدأ من الآن في التكوّن عن طريق تفنيد طريف للتاريخ هو علم الإنسان، لكنّ هذا العلم هو على عكس كلّ تماثل وكلّ صوريّة رياضية. إنّ القرن الثامن عشر هو قرن الفلاسفة، ويقابله القرن التاسع عشر كقرن للفيلولوجيين. إنّ لغة ما لا تُردّ إلى نسق اصطناعي أو إلى عدد من أعداد العقل. فهي تتجلى في العصور الرومنطيقية كتجسيد لعبقرية شعب في مستوى الكلام. إنّ اللّغة القائمة التي يُؤكّد ديكارت وأتباعه على غموضها، تمثّل في الواقع ضرباً من امتحان وعي المجموعة وأُفقاً ثقافياً يخضع لتأثيره كلّ فكر شخصي. تبرز هنا أنطولوجيا جديدة على إثر أعمال هوم بولدت (Humboldt) وجاكوب قريم (Jacob Grimm) والعلماء الألمانيين الذين يكون رينان (Renan) لسان حالهم في فرنسا، وهي أنطولوجيا مُتأسّسة لا على العقل الإلهي أو على نشاط الفكر، بل على القيم الوطنية. فتكوّن اللّغة كلاً عضويّاً ينمو من اللاوعي الجماعي الذي يُغذّي كلام الشعراء المفتون، ولكن أيضاً سرد الروّاة الساذج والحكمة الشعبية.

تُعدّ العصور الرومنطيقية إذن ميتولوجيا للغة، واكتُشف من جديد أنّ اللفظ الإغريقي "ميتوس" يعني الكلام حقاً. إنّ أعمال المقارنين واكتشافات الإيتيمولوجيا ومماثلة عائلة هندو ـ غربية تصلح كحُجّة مُتخيلة على افتراضات المُنَظّرين الأكثر تحمّساً للقومية التي يُخمِدُ طَلَبَها توحيد الكنائس (oecuménisme) العقلي لعصور الأنوار. فلم يعد الإنسان إلا خادماً للتمثلات الجماعية التي تؤكد اللّغة دوامها، لكنّ ثمةّ للأسف رابطاً بين الفيلولوجيا الألمانية التي للقرن التاسع عشر وأسطورة القرن العشرين حسب المَذْهَبِيّين القوم ـ اجتماعيين (national-socialistes)، إذ يتمسّكون بعبقرية العِرْق التي عثر عليها في اللّغة وفي المؤسسات القديمة لتبرير الملامح الأكثر غرابة لنظام قاد أوروبا إلى أن تشكره في زمن ما.

إنّ فشل النازية هو إذن وبمعنى ما فشل فلسفة ما للغة. وللأسف، فإنّ عصرنا قلّما يبدو قادراً على وضع اللّغة الموحّدة التي تصلح أن تكون مقياساً مشتركاً للإرادة الخيّرة بين شعوب العالم التي أصبحت أكثر تلاحماً بفعل نموّ الحضارة نفسها. فتصطدم منظمة الأمم المتحدة بالصعوبات نفسها التي اصطدمت بها جمعية الأمم حديثاً. فتنافر الاصطلاحات التعبيرية وتنافر القيم يُؤبِّدُ على البشرية لعنة بابل.

يظلّ معنى الكلام الإنساني إذن بدون حلّ. فكل ميتافيزيقا مقترحة على مرّ العصور تبدو منتهية إلى الفشل. إنّ اللّغة البشرية ليست كلام إله خالق، ولا يمكن أن تدّعي تكرار ذلك الكلام. ولكن ليست أيضاً الأثر الاصطناعي لعقل حرّ يضع لغة مشفّرة حسب معايير الذكاء العقلي وحده. لا ينبغي من هذا المنحى أن تخدعنا نجاحات العلم، لأنها تنحصر في ميادين ضيّقة حيث تُهيمن موضوعيّة غير إنسانية. وأخيراً فإنّ كلام الإنسان ليس مُسخرّاً لنسق من التمثلات المشتركة التي تحبسه داخل ميدان تمركز اللاوعي الجماعي.

فالكلام لا يُبقينا داخل أَسْر الوجود، وإنما لا يترك لنا أيّ جواز. إنّ الكلام لا هو بالوجود ولا هو بغياب الوجود. وإنّما التزام الشخص في علاقته بالأشياء وبالأشخاص. وبلغة أخرى، إنّ التفكّر حول اللّغة لا ينبغي أن يتأسس انطلاقاً من الله، أو من العقل أو من المجتمع، وإنما انطلاقاً من الواقع الإنساني الذي يجد داخل الكلام ضرباً من إثبات الذات، ومن الإقامة داخل العالم. فالمشكل ليس مشكلاً في اللّغة في حدّ ذاتها، بل مشكل الإنسان المُتكلّم.

الفصل الرابع: الكلام كواقعة إنسانية:
("la parole comme réalité humaine", pp.33-41.)

لا تُكوّن اللّغة إذن واقعاً فريداً منفصلاً عن الإنسان المتكلم، أو فعلاً إلهياً أو نسقاً مغلقاً مكتملاً، أو آلة روحية تنظّم الحياة الشخصية عن طريق فضيلتها الأنطولوجيّة. إنّ كلام الإنسان لا يكتفي بتكرار واقع سابق، وهو ما ينْزَع عنه كلّ نجاعة باطنة. وكلّ فلسفة لا ترى في الإنسان وحدة كاملة فإنها تضاعف الكلام إلى لغة خالقة مفارقة ولغة إنسانية مخلوقة، خالية من كلّ مبادرة ومن كلّ راهنية، ولكنّ الجمع بين هاتين اللغتين في حدّ ذاته لا يتساوى مع الكلام الإنساني.

ينبغي من هنا فصاعداً ألا نعتبر الكلام نسقاً موضوعيّاً في ضمير الغائب المفرد (troisième personne)، ولكن كمشروع فردي: فالمبادرة بالكلام هي مهمّة من بين مَهّام الإنسان الكبرى. إنّ الصيغة هنا يجب أن تكون معثوراً عليها عند الحرف الأبجدي، إذ اللّغة لا وجود لها قبل المبادرة الشخصية التي تضعها موضع حركة. فاللّسان (la langue) القائم يقترح إطاراً لنشر النشاط الشفوي فحسب. إنّ الكلمات ومعانيها تصوغ إمكانات غير مكتملة أبداً ومتحرّكة دائماً، وهي معطاة للإنسان الذي يتكلم. إنّ لغة الشخص في راهنيتها ليست خادمة للمعجم، ولكن بالأحرى المعجم هو الذي يتكفّل بمهمة اقتفاء أثر الكلام وفهرسة معانيه وهو في طور التمرين.

إنّ لغة حيّة تتجلى إذن كلغة بشر أحياء. فتتجدّد مفردات كلّ فرد على مرّ الزمن في وسط المجموعة نفسها. ثمّة تاريخ اللسان الخاصّ بكلّ كاتب كبير، ولكن أيضاً، وبكلّ تواضع، نستطيع أن نبيّن تنوّعات الكلام الخاصّة بكلّ إنسان داخل نموّ وجوده. كذلك فإنّ التغييرات لا تُحمل على المفردات فحسب، لأنّ لغة ما ليست مجموعة من الكلمات. فقد بيّن الألسنيون أنّ وحدة حساب الكلام الحيّ لا تَحضُر في شكل أسماء أو أفعال أو نعوت منعزلة عن بعضها بعضاً كحبات داخل كيس. فعنصر الكلام هو كلٌّ مركّب، محرّك بواسطة قصد المدلول: إنه **الرّسم الشفوي** الذي يُعبّر عنه بجمل قليلة أو كثيرة التركيب، وأحياناً تكون مقتصرة على كلمة واحدة، ولكنّها تستجيب دوماً إلى وُضوح المعنى. لا ينبغي أن نعتبر الجملة داخل حياة الفكر مصنوعة من كلمات، فإنه من الأصحّ جدّاً أن نقول إنّ الكلمات تتكوّن كإبداع ترسّبي لجمل تتجلى فيها إرادات التعبير.

لا يستطيع أيّ شيء أن يُوضّح جيّداً كيف يكون الكلام الإنساني فعلاً دوماً. إنّ اللّغة الأصيلة تتدخّل ضمن وضعية معطاة كلحظة من لحظات هذه الوضعية أو كردّ فعل عليها. إذ أنّ وظيفتها هي أن تحافظ على التوازن أو تُعيده، وأن تضمن اندماج الشخص داخل العالم، وأن تحقق التواصل. فالوضعيات تتجدّد إذن بدون توقف على طول التاريخ الشخصي، دون أن تتكرّر بالضبط إلى درجة يكون فيها معنى كلمة ما معنى أصليّاً في كلّ تناسخ، وإن كانت (الكلمة) لم تُثبَتْ بعد على نحو مطلق. لا يمثل المعجم إلا فهرساً للقيم المُعدّلة كإحصائيات. يقول هنري لاكروا (Henri Lacroix): "إن الكلمة تُخلق في كلّ مرّة تكون فيها مبثوثة (émis)" (الجمعية الفرنسية للفلسفة، 4 ديسمبر 1922).

إننا نعثر إذن على الخاصيّة المبدعة للكلام بالفعل، التي تعرّف عليها الأوّلون واللاهوتيون على طريقتهم. وهم الذين يجعلون من الفعل محمولاً إلهياً. تبرز اللّغة مفارقة للواقع الإنساني، إذ تكون قادرة وحدها على تكوين العالم. إذ ليس العالم قبل الكلام إلا السياق الراهن المبدّد دائماً للسلوكيات الإنسانية، دون أن تكون محدّدة بحدود الشخصية والوسط. إذ أنّ اللّغة تَحْمِل التسميات والدقة والقرار والوعي والمعرفة في الوقت نفسه. فالاسم يخلق الموضوع، وهو الوحيد الذي يطاله وراء رخاوة المظاهر، ولكنّه يخلق أيضاً الوجود الشخصي. تتوافق المواضيع التي في العالم مع حالات الفكر، بحيث إنّ التسمية الواحدة تحمل حلاً للإبهامات الباطنية. فأن نقول "أنا مريض" أو "أنا محبّ" أو "أنا خجول" أو "أنا بخيل" هو أن نعثر على كلمة اللغز (l'énigme)، فأن نُسند كلمة لِلغز الرّيبات الشخصية هو أن نتجاوز اللايقين. إنّ عملية اللّغة تخلق فينا ـ وراء الحاضر ـ طبيعة دائمة، قادرة على تفسير الماضي والدخول في المستقبل.

يُكوّن الكلام ماهيّة العالم وماهيّة الإنسان. فكلّ جملة توجّهنا داخل العالم الذي لا يُعْطَى كما هو في مرّة واحدة، ولكن يتجلّى هو نفسه متكوّناً كلمة كلمة، فحتى العبارة الأكثر فقداناً للمعنى تحمل إسهامها في عمل الإصلاح الدائم. لذلك فإنّ كلّ كلمة يغنمها الطفل الصغير تُوسّع عالمه، وكذلك فإنّ استعمال الكهل للكلام لا يتوقّف عن تقديم إسهام في الوجود. لقد كان من العيب أن ترى النظريات التقليدية اللّغة نمطاً من المضاعف الذهني للعالم (double vental du monde)، كما لو أنّ عالم الخطاب (discours) باستطاعته أن يُوجد خارج عالم الأشياء، وكما لو أنّ الكلمات لم تكن كلّ ما يمكننا أن نمسكه من العالم، أو لم تكن واقعه الباطني أو لحماً من لحمه. يُهْدَى العالم إلى كلّ واحد منا كمجموعة من المعاني. فكما يقول سارتر ذلك رسميّاً: "يتدفق الإنسان من الباطن كجبنة، إنّه لا يُوجد.."، ولكي يتوقف هذا "الرّعاف المُملّ" فإنّه على الإنسان أن يُوافق على تحديد نفسه وتعريف نفسه، أي أن يتحمل عدداً معيّناً من التسميات التي تعطيه جنسيته ومهنته ومرتبته الاجتماعية، وباختصار، تعطيه وضعيته داخل عالم الكلمات الذي هو عالم القيم والموجودات، فبدونه لا يبقى منه مطلقاً إلا قليل من الماء العكر الذي يسيل داخل دوامة، عبر ثقب للتفريغ".(وضعيات I، ن، ر، ف، 1947، ص 218).

أن نسمّي هو أن ننادي إلى الوجود، وأن نسحب من العدم. فاللامسمّى لا يستطيع أن يُوجد بطريقة ما مهما كانت. بما في ذلك إله العهد القديم الذي يرفض أن يحطّ من هويته، فإنّه ينبغي عليه أن يقبل بأن يتشكّل في عالم الكلام الإنساني تحت اسم "ياوه" (Yaweh). لقد كان نيتشه على حقّ عندما قال إنّ البشر العباقرة هم في العادة "الذين يُسَمّون" (des nommeurs). فالعبقرية تكمن في "رؤية شيء ما لا يحمل اسماً، مع أنّه على عيان كلّ العالم" (المعرفة المرحة، 261). لذلك أبدع نيوتن الجاذبية الكونية، وبرغسون الحدس، وأبدع كانط الوعي الترسندنتالي، كما أبدع أنشطاين النسبية، وأبدع الفيزيانيون المحدثون الكهرباء.

تؤكد التسمية حقاً في الوجود (un droit). فالكلمات هي التي تصنع الأشياء والموجودات، وهي التي تعرّف العلاقات التي يتكوّن وفقها نظام العالم. فأن نحدّد موقعاً في العالم لكلّ واحد منّا هو أن نكون في سلام مع شبكة الكلمات التي تضع كلّ شيء في مكانه داخل المحيط. إذ أنّ فضاءنا الحيوي هو فضاء للكلام وإقليم سلميّ يكون فيه كلّ اسم حلاً لمشكل. فالعلاقات الإنسانية في حدّ ذاتها تظهر كنسق شاسع من الكلمات الذي نُعطيه ونتقبل منه حسب الإيقاعات المتوقعة من طرف التراتيبات والآداب (les politesses).

يُعرّف النظام الاجتماعي برمز التسميات الصحيحة، بحيث أنّ كلّ خلاف وكلّ تباعد يظهر حالاً كعلامة على اختلال التوازن. فإذا كان أولادي وزوجتي وأصدقائي وتلاميذي ورؤسائي والذين أرؤسهم لا يُعطونني

أبداً تسميات لي الحق في انتظارها من كلّ واحد منهم فإنّ قلقاً سيبرز: فتهدّدنا الثورة أو الارتهان الذهني. إنّ القلق حول اللّغة يتزامن دوماً مع هدم لمؤسسة الإنسان وقطيعة مع العالم تتطلب عودة إلى النظام أو إنشاء نظام جديد. فأن نضع النظام داخل الكلمات هو أن نضع النظام بين الأفكار وبين البشر. إنّ كلّ واحد منّا، من جهة كونه عضواً في عائلة أو تابعاً لفريق أو هو عنصر في هيئة سياسية أو مواطن في أمّة وفي جماعة دولية، فإنه يجد نفسه مُتطوعاً في مهمّة تأمين تقويم التسميات التي كان قد وَعَى بها الأباطرة وعياً غاية في الوضوح.

إنّ اللّغة معاصرة لخلق العالم بالنسبة إلى كلّ واحد منّا، فهي صانعة هذا الخلق. إذ عبر الكلام يأتي الإنسان إلى العالم ويأتي إلى الفكر. فالكلام يُظهر وجود العالم ووجود الإنسان ووجود الفكر. إنّ خلق العالم وخلق الإنسان هما دعوة إلى الإنسانية. تضع اللّغة الأشياء في منظور وفق معناها. لذلك فهي لا تُمَثّل بالنسبة إلينا فيزياء، بل تُمثّل بالضبط ميتافيزيقا الواقع، فهي تفترض وراء فحواها الظاهر والمادي أن توضع في مكانها وفي علاقتها بالواقع الإنساني ككلّ. يُوَجِّه حدس القيمة ويُبَرّرُ إثبات التواجد عن طريق استلهام سيريالية مُولّدة لكلّ إنطولوجيا. تُعطى لنا اللّغة كَعُملة وجود صعب المنال، مُرتَهنة لدى الأشياء، لدى الإنسان ولدى الله، فهي رمز الملاقاة والوفاء المتبادل للواقع وللحق داخل وعي الإنسان.

وللأسف، فإنّ تعظيم اللّغة هذا يضعها موضع سُؤال في الحال. فإذا كانت الكلمات تطلب الوُلوج إلى الوجود، صحيح أنه فيما وراء الكلمات وفي جانب آخر منها لا يوجد شيء، فكيف يقع أن يتجلى الكلام أحياناً كمشتبه وكفاقد للقيمة؟ إنّه عملة للوجود مبدئياً، لكنّه دوماً عملة زائفة. ذلك أنّ فكرة أنطولوجيا اللّغة تصطدم مباشرة إذن باعتراض **البهتان** (mensonge)، ومن البديهي أنّه اعتراض لا معنى له، إلا إذا كان الكلام يقصد أن يكون رسولاً للحقيقة. تبدأ الحياة الروحية في الواقع وعلى نحو طبيعي لا مع اكتساب اللّغة بل مع الثورة ضدها إذا تمّ اكتسابها. فالطفل يكتشف العالم عبر اللّغة السائدة التي يمليها عليه محيطه. ويكتشف المراهق القيم داخل **الثورة** ضدّ اللّغة التي يثق فيها بعماء إلى حد الآن، والتي تظهر له على ضوء الأزمة فاقدة لكلّ أصالة. لقد عرف هذه الأزمة كلّ إنسان أهل لهذا الاسم داخل تقدير اللّغة التي تجعله يمرّ من الثقة السّاذجة إلى الاتهام المضاد (récrimination). "الحرية، يكتب الثوري خائب الظن، الحرية، لأجل اسمك ارتكبت الجرائم"، "الطبيعة، يؤكد الرومنطيقي المتحسّر، فقدنا كلّ شيء مع هذا الاسم". "الفضيلة، أنت لست إلا مجرد اسم" يصرّح بريتوس (Brutus) المهزوم قبل أن يُقتل. ويعطي هملت (Hamlet) بطل الوضوح اليائس الصيغة الأخيرة لكلّ خيبات أمله: "كلمات، كلمات، كلمات. ("words! Words! words!").

إنّ ثورة هملت الجذرية قادته ضرورة إلى الموت. فأن نُنكر اللّغة هو أن نُضيّع معنى الواقع. لقد اكتفى أمير الدانمارك، لحظة إشرافه على الموت بقول: "ويبقى الصمت". وهي العبارة الأخيرة المعبّرة عن هذه العودة إلى عالم الخطاب الذي يتماثل مع عودة إلى الوجود. يمكن أن يظهر الاتهام المُضاد من ناحية أخرى غير مكتمل، فهو يحضر في أغلب الأحيان كلحظة (من لحظات) إنجاز وجود جديد داخل العالم. وهي لحظة النقد والعودة إلى الذات، ولحظة بداية جديدة للفكر وللفعل: إنها لحظة سقراط، المُسائل السّاخر الذي يُطالب ضحيته بمعنى كلمة تافهة، فيُجيب المحاور دون أن يقع نظره على الفخّ الذي نصبه سفنكس المرح (Sphinxjovial) بإعطاء التعريف الذي تلقّاه، ولكنّ سقراط لا يُضنيه أمر إظهار عدم كفاية الفكرة التي يقترحها عليه. فيضَعُ ضحيته في تناقض مع نفسه، ويقترح عليه عبر جدال عارف متقشّف (ascèse) أن يأخذه من التنافر إلى الاتفاق، ومن أوهام الحسّ المشترك إلى صرامة الحسّ السليم.

يمكّن المثل الرّمزي (parabole) السقراطي من إعطاء القيمة الصّائبة لواقعة اللّغة. فالكلام القائم يُكرّس معنى ملائماً يجعلنا نلتزم به ضمن الحركة الأولى دون أن ننقده. إنّ لفظ اللّغة المستعملة (langage courant) هو إذن شيء للجميع وللشخص، وهي خالية من كلّ راهنية، أيّ من كلّ قيمة. فاللّفظ أخذ مصدره ـ كما رأيناه ـ من داخل الالتزام الحالي للإنسان وللعالم، ولكنّه يطمح إلى أن ينعتق من سياق التجربة المباشرة. لذلك ينبغي أن نَجْعَلَ الاقتصاد في الفعل كبيراً، بقطع النظر عن الوضعية ومهما كان معناها، كما لو أنّنا نتعهّد بالوضعية وإن كانت غير معطاة. ومن الجهة نفسها، فإنّ الكلام الذي كان الواقع الإنساني [صار] يُقَنِّعُ غياب هذا الواقع، إنه واقع ناقص (par défaut). فلا وجود للحقيقة إلا في مستوى الكلام، ولكنّ البهتان معاصر للحقيقة، فالعديد من الكلمات التي نتلفّظ بها في سائر الأيام هي كلمات كاذبة أو أدلّة على تعاطف ومودّة أو على مصلحة لا نشعر بها، لكن يوضّحها كاره المجتمع (misantrope) دون عناء باتهام مضاد.

إنّ اللّغة شاهد على أصالة الوجود [لكنّه] أيضاً وَجْهُهُ المُضاد. ينتهك الحسّ المشترك المعنى الأصليّ للكلّمات. فكلمات كلّ واحد منّا لا تُصبح كلمات الجميع إلا بفقدان قصدها بالتدرج المترقي، كما تَغُشُّنا قطعة نقدية جديدة ولمّاعة إذا ما أخذت في الدوران. فعوض أن تتوافق الكلمة مع القيمة، فهي ليست إلا ملصقة عليها. إذ تتجنب تغيير اتجاه تمظهر مباشر أكثر، يقول الشاعر اللاتيني "كلمات وصيغ لا غير" ("prae tereaque nihils") وهكذا يُصبح ترسّب الوجود ممكناً، ويُبرّر هذا الانحطاط الذي يُفرغ الكلام من جوهره ومن نجاعته كلّ الثورات. لأنّ الذي يعتبر اللّغة مالاً يُحسب، يتجّه نحو القيم غير الموجودة بواسطة الأحاديث، وسيكون المغفّل الذي يشتغل باللّغة ويندهش اعتقاده الخيّر من كونه لن يرى من هنا فصاعِدًا وفي كلّ مكان غير اعتقاد سيّئ.

وزيادة على ذلك، فإنّ اغتصاب اللّغة لا يتعلّق فقط بالتراجع الاجتماعي للكلمات أو بالثقة المفرطة لمُحاورينا. فإذا تعمّقنا أكثر، فإنّ اللّغة تنزلق بين كلّ إنسان وبين نفسه كشاشة تُشوِّهها أمام ناظريه. فالوجود الحميمي للإنسان هو في الواقع غامض وغير متميز ومتعدّد. لذلك تتدخّل اللّغة كقوّة موجّهة إلى انتزاعنا من أنفسنا لكي تصفّفنا على المحيط ولكي تُكيّفنا حسب المقياس الجماعي للكلّ: إنها تُعرّفنا وتكّملنا، تنهينا وتحدّدنا. إنّ وجهة الوعي الذي تزاوله اللّغة يجعل منها مُساعدة على اكتسابه ضدّ تعدّد الوجود وبفقرها المترّاص. إنّنا نعود إلى حياتنا الباطنية في الوقت نفسه الذي نكون فيه مجبرين على اللجوء إلى اللّغة، لأنّ اللّغة تفرض نظاماً خارجياً. فاستعمال اللّغة هو سبب من بين الأسباب الأساسية لشقاوة الوعي، وهو بالغ الأهمية بحيث لا نستطيع تجاوزه. ذلك ما لفت نظر بريس باران (Brice Parain): "في كلّ لحظة، يحطّم كلّ وعي قليلاً من المفردات التي تلقّاها، والتي لا يستطيع إلا أن يتمرّد عليها، لأنها ليست له، ولكن يُعيد خلق غيرها في الحال ويتلاشى فيها من جديد، ولهذا السبب فإنّ الظرفية الإنسانية تتجلى للكاتب "ظرفية للثورة والانتحار المعمّمين" (اللّغة والوجود، الوجود، ن. ر. ف، 1945 ص 165).

تكشف حيوية ردّ الفعل هذه عن روح جميلة، لكنّها لا تُعفَى مع ذلك من ضرب من السذاجة. صحيح أنّ اللّغة تفترض عدداً معيناً من القيم المترسّبة داخل الثقافة المكتنفة، التي تظلّ في حالة الأحفور زمناً طويلاً، بحيث أنها تبقى معطيات خارجية محضة. غير أنّ القيمة الأصيلة ليست شيئاً: إذ لا تمتلك الروحانية المتخثرة داخل الحسّ المشترك أي حقّ واقعي لفرض وجهة للوعي. فيؤدي كلّ تأكيد للقيمة إلى مبادرة شخصية تكون كاستعادة لعناصر اللّغة عبر وعي هو وحده الذي يكتشفها ويقدر على إثبات أصالتها. إنّ المخدوع هُنا إذن إنّما تخدعه نفسه في البدء: فهو لم يبلغ بعد عظمته الرّوحية. إنّ الأزمة هي علامة على الترقية الحازمة، وستحلّ عندما يصل الشخص إلى أن يجد في ذاته أساساً يكون أكثر صلابة من التربة المتحرّكة التي للغة المشتركة.

أن نتهّم اللّغة هو أن نكون مخدوعين بها، وان نُفرط في معرفة مرمى لا تمتلكه. ولا يُمكن أن يكون هذا التمرّد نفسه خالياً من الاعتقاد السيّئ. فأن نتهم اللّغة في العادة هو أن نحتج ضدّ الغير، وأن نتهم الآخرين المعتبرين كمسؤولين عن هذا الفساد القائم. فالخطأ هو دائماً مشترك: فالإنسان الذي يتّهم ليس نقيّاً رغم ذلك. إذ ليس الآخرون هم فقط من ينقصهم الكلام، بل إنّ الذي ينطوي في البداية مع الآخرين ضمن جماعة مُتأسّسة على سوء فهم، هو نتاج جماعي لكلّ الذين ساهموا فيه. فعوض أن نحاكم الآخرين والكلمات فإنّه من الأجدر أن نتجاوز الثورة إلى الإهداء، أي إلى الإثبات الإيجابي الذي تقرّره الذات نفسها.

وبعبارة أخرى، فإنّ اللّغة لن تُبَرَّرُ في كلّ الحالات. ويتبع كلّ واحد أن يتعهّد بلغته بالبحث عن **الكلمة الخاصة**. إذ يجب أن تُستبدل الأنطولوجيا الموضوعية أو الاجتماعية بأنطولوجيا شخصية، فليس الخطاب إلا دليلاً على الوجود الذي يختص كلّ واحد بجعله أصيلاً. إنّ الكلمات لا تكذب وإنما الإنسان. إنني لا أسحب بالأحاديث اتفاقيات حول الوجود، ولكن حول نفسي وحول وفائي الخاص فقط. فالتصور الطفولي لنجاعة سحريّة الكلام في ذاته يضع مكاناً لهذا الفكر الأكثر صعوبة، ومفاده أن اللّغة هي بالنسبة إلى الإنسان وسيلة متميزة لفتح طريق يعبر الحواجز المادية والأخلاقية للولوج إلى الوجود، أي إلى القيم الحاسمة المُؤهّلة لتوجيه مصيره.

إنّ كلام الإنسان ليس خاضعاً إذن إلى قضاء يرتهنه على نحو مسبق لفائدة غائية مفارقة أو فعل إلهي أو وعي جماعي. فالغائيّة الوحيدة هي غائيّة محايثة لضرورة ضمان التوافق بين الوجود والفعل داخل سلوك الإنسان ككلّ. يستدعي اللسان الميت قيماً غائبة وميّتة منذ زمن طويل، ويتّهم الكلام النابض تشدّد الحياة الروحية في العمل، فهو ليس نسقاً مغلقاً البتة إذا اكتمل، بل هو جُهد لإحياءات مستمرّة. إنّ لغة ثابتة هي علامة على السّقم بالنسبة إلى شعب بأسره، كما بالنسبة إلى كاتب ما. وعلى غرار ذلك، فلا وجود **لكلمة أخيرة** داخل الإثبات الشخصي قبل اللحظة الأخيرة للتواجد نفسه. تتجلّى ماهية اللّغة داخل اقتفاء هذا الوجود، وتكون مُرتبطة ارتباطاً لصيقاً بماهية الإنسان نفسه، فمن مهامّها أن تتجلى للعالم، وهي مهمّة لا يمكن تحقيقها بصرامة، وإن كانت ضرورية. إنّ المعنى الأخير للكلام يُصنَّف أخلاقياً.

إذ تستطيع الإيتيقا وحدها أن توحّد الطرق المتنوعة لمقاربة تمرين الكلام، فيُظهر الكلام في واقعه التامّ قدرة الإنسان الخارقة للطبيعة، فهو الذي بتوجّهه إلى العالم يُعطي معنى لذاته ومعنى للعالم. فالكلام أثَر ضخم تُظهر داخله كلّ شخصية ما تقدر عليه فضيلتها الخلاّقة، وعجزها عن المرور من اللّبس الذهني إلى الواقع الإنساني، ومن فوضى الانطباعات والأشياء والقيم إلى الوحدة الأصلية لتأكيد حازم.

MominounWithoutBorders

Mominoun

@ Mominoun_sm

مؤمنـون بلا حدود
Mominoun Without Borders
www.mominoun.com مؤسسة دراسات وأبحاث

الرباط – أكدال. المملكة المغربية

ص ب : 10569

الهاتف : 54 99 77 537 212+

الفاكس : 27 88 77 537 212+

info@mominoun.com

www.mominoun.com

All rights reserved © 2015

جميع الحقوق محفوظة © 2015